الأدب الفرنسي

أعتبرت نصوص معاهدة السلام بين "لويس الجرماني" ملك (جرمانيا) و"شارل الأصلع" ملك فرنسا، التي حررت بالفرنسية القديمة (842م) أول نصوص كتبت بالفرنسية واشتهرت فيما بعد باسم معاهدة ستراسبورج (Les serments de Strasbourg) وتعتبر هذه النصوص شهادة ميلاد الأدب الفرنسي الذي ازدهر بعد ذلك.

ثم شرعت فئة من رجال الدين في كتابة القليل من النصوص القصيرة بالفرنسية القديمة، ذات الوحي الديني لتربية الأميين البسطاء من الشعب الفرنسي. وانقسمت بعد ذاك هذه الفرنسية القديمة إلى لغتين، إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب التي اعتبرت لغة ثقافية، أما لغة الشمال، لغة (أوييل) وأصلها (وي) (نعم بالفرنسية) فقد عرفت ازدهارا عبر نصوص أدبية بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وكتب بهذه اللغة الشعر أساسا، وبعض القصص، ونصوص مسرحية بينما استمرت المادة العلمية تكتب باللاتينية، وأيضا بعض القصائد والمقالات الأكاديمية. فاستمر عبر العصور الوسطى هذا الانقسام بين أدب شعبي بالفرنسية الدارجة وأدب رسمي باللاتينية.

وأثناء الحرب بين فرنسا وإنجلترا في القرن الرابع عشر تأكدت الوحدة القومية الفرنسية واستقرت الملكية التي كانت تسندها، فانتشرت اللغة الفرنسية مهددة سيادة اللاتينية، ففي 1539 أعلن الملك (فرنسوا الأول) قرارا بفرض استخدام الفرنسية في المواد التشريعية، ثم انتشرت في مختلف المدن بينما استمر الشعب الفرنسي في القرى يتحدث بلهجاته.

شروط الإبداع في العصور الوسطى

كانت شروط إبداع الأنواع الأدبية المختلفة في العصور الوسطى مختلفة تماما عما يسمى اليوم بالإبداع الأدبي. فلم يكن هناك مبدع يشغل وظيفة الفنان أو الكاتب، بل ثلاثة أنواع من الرواة:

1- منشد الملحمة أو المينستريل (Le Menestrel): وهو أول نوع من الرواة، ولم يكن منشد الملحمة من النبلاء ولا من العبيد، بل من التجار الذين سيمثلون فيما بعد محركا أساسيا للبرجوازية الفرنسية في العصور الوسطى. وكان هذا الأديب موظفا في القصر الإقطاعي، يقع على عاتقه تسلية السيد الإقطاعي وبلاطه وجزء من مجتمع المدن، ثم تحول إلى مجرد منفذ ليس له وظيفة إلا تسلية السيد وأتباعه.

2- المنشد المتجول: ويمثل درجة أسمى في المكانة الاجتماعية من "المينستريل"، وكان هذا المنشد المتجول ممثلا راقصا ولاعبا بشتى المعاني بما فيها الكلمات، يتجول مع امرأة أحيانا، تشاركه حياته وفنه. يشبه الراوي العربي في وقفته في الساحات العامة منشدا البطولات على الجمهور.

يكون هذا المنشد من أصل شعبي، تراه مستقلا عن السيد إلا في بعض الفترات المؤقتة، وجمهوره أوسع من جمهور القصر، يتدرج من الفلاح الفقير إلى السيد الإقطاعي.

ويزداد في هذا القص المتجول العنصر السردي من أجل إثارة الاهتمام والمتعة عند جمهور غير مثقف ثقافة عليا. والفرق بين "المنشد المتجول" و"المينستريل" أنه حر وصاحب أجر يعيش منه، ولديه مهنة تعلم تقنياتها كما أن ممارسة الشعر أكسبته معرفة بعالم زمنه في القرن الحادي عشر والثاني عشر.

3- منشد التروفير (Le trouvère) (الذي يجد): والفرق بينه وبين "المنشد المتجول" هو أنه يبدع مادته بنفسه، بينما "المنشد المتجول" يروي إبداعه وإبداع غيره. وهذا "التروفير" من النبلاء الذين يكتبون الشعر المركب، السامي، ويقلدون شعر "الموزاراب" أي العرب – الأندلسيين. واستقر نوع من التعاون بين "التروفير" و"المنشد المتجول" الذي كان يضمن نجاح العمل الفني أو فشله.

وإلى جانب هؤلاء المبدعين، نجد كتاب آخرون يكتبون من داخل عالم الكهنوت بلغة الثقافة المعترف بها في العصور الوسطى: اللاتينية. فرجال الدين كانوا المسؤولين عن التعليم – يشرفون

عليه ويقومون بممارسته- وقد أعجبوا بالفكر الأرسطي وبالإنجاز العلمي (الرياضي والفلكي والطبيعي) للعرب فتعلم بعضهم العربية منذ القرن الثاني عشر لنقل آثار العرب العلمية إلى اللاتينية.

الأنواع الأدبية في العصور الوسطى

1- أنشودة الفعل (La chanson de geste): وهو النوع الأدبي الذي يسمى عادة (بالملحمة) تقص فعلا بطوليا، أو حربا تدور حول العداوة الأبدية بين قبيلتين أو شعبين، بين الخير والشر، ينتصر فيها الخير.

لا نعرف بالتأكيد هوية كاتب الأنشودة، يذكر أحيانا اسم الراوي – المنشد المتجول- الذي يقصها أمام جمهور واسع الذي هو من النبلاء، وفي إشارات أخرى هو من المجموعات الشعبية الواسعة.

تتميّز "أنشودة الفعل" أولا بوصفها للفعل الملحمي: مراحل المعركة، نوع السلاح، بشاعة القتل الذي ينتهي بالضرورة بموت العدو أو هروبه، ثم تصور الأنشودة عظمة البطل بقوته الجسدية الخارقة.

ونوع "أنشودة الفعل" نوع مكتمل الملامح، يقلد أنماطا سابقة، لا يروي أحداثا معاصرة، بل أفعالا ماضية، يؤكد الراوي أنها مدونة في حوليات لاتينية رسمية، محفوظة في الأديرة المشهورة. وهناك موقفان لتفسير أصل "أنشودة الفعل":

أ- الموقف التقليدي الذي نجد فيها إعادة كتابة قصائد مفقودة، ولدت هي نفسها من تقليد ملمحي شهي.

ب- الموقف الرومانسي الذي نرى فيها نتاج عبقرية بعض المبدعين، استلهموا من أساطير شعبية، وساعدهم على رسم الخطوط الأساسية بعض رجال الكنيسة.

2- رواية الحب العذري: إذا كانت "أنشودة الفعل" تعبر عن الحرب والجنود، فإنه منذ أواخر القرن الحادي عشر، ولاسيما في جنوب فرنسا ظهرت أنشودة من نوع آخر تدور أساسا حول الحب، ومجموعة من القيّم التي تمجد مفهوم الحب السامي الأفلاطوني بين الرجل والمرأة.

وتوجد مصادر مختلفة لهذا النوع الأدبي الذي يقدم مثلا أعلى للحب والحياة، قصائد الحب العذري في الأدب العربي، كتاب فن الحب للشاعر اللاتيني "أوفيد"، طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، التي ترجمت مبكرا إلى اللاتينية وإلى الاسبانية القديمة، ودونت هذه المجموعة من القيم في عمل باللاتينية "لأندريه لوشبلان" الفرنسي، الذي استعار عنوان مختاراته من مجموعة "أوفيد" فعنونها أيضا: فن الحب.

ومن أشهر كتاب "رواية الحب العذري" نجد "كريستيان دي تروا" الذي حاول أن يصون بناء المؤسسة الزوجية بإدخاله الخيال والتخييل الروائي في وصفه للعلاقة بين الزوجين.

3- الأقصوصة الساخرة، وقصة الحيوان: وتسمى الأولى أقصوصة، تقوم على سرد حكاية صغيرة تسخر من بعض الأنماط الاجتماعية: المرأة الماكرة اللعوب، الزوج الغيور، الراهب السكير...

لم ترصد أصول هذه الأقاصيص بشكل ثابت ونهائي، فمواضيعها توجد في الأدب الشعبي الفرنسي والإنساني عامة. لكنها تحمل أيضا آثار قصص ساخرة لاتينية أو شرقية، فتأثر بعضها بشكل واضح من ترجمات كليلة ودمنة التي انتشرت باللاتينية والاسبانية القديمة منذ بداية استرداد المسيحيين لأسبانيا، فترجموا هذه الآثار، حرصا على الاحتفاظ بدور التراث العربي واستخدامه في تأسيس حضارتهم.

ومن أشهر "الأقاصيص الساخرة" قصة أوكاسان ونيكوليت" المكتوبة في مزيج من الشعر والنثر. وجمهور هذه الأقاصيص هو الجمهور الشعبي والنبلاء في آن واحد.

أما قصص الحيوان في الأدب الفرنسي في العصر الوسيط، كانت تمثّلها "رواية الثعلب" فهي "ملحمة هزلية" ذات شخصيتين أساسيتين: "الثعلب" وهو من النبلاء، خاض المعارك المستمرة

ضد عدو "ايسنجرين" الذي لم تستطع قوته الغاشمة أن تغلب مكر الثعلب. ومن مؤثرات قصص الحيوان نجد قصص كليلة ودمنة وقصص الحيوان اللاتيني القديم "لإيزوب".

4- المسرح: نسبت بداية المسرح الفرنسي إلى الطقوس الدينية، إذ كانت تقام المشاهد المسرحية أمام أعتاب الكنائس في أيام الأحد بعد القداس وفي المناسبات الدينية، لكن كما يطرحه الناقدان "جاريل" "وبايان" حتى وإن ولد المسرح في أحضان الكنيسة فلم يتحول إلى مسرح إلا بعد خروجه منها. ومن الممكن أيضا أن نجد للمسرح الديني أصولا أخرى في التاريخ البعيد أو في الحياة الشعبية ذاتها: فقد أظهر الناقد "باختين" بمهارة ارتباط المشاهد المسرحية والاحتفالات الكارنفالية في العصور الوسطى بالحياة الشعبية.

وهناك نوعان من المسرح في العصور الوسطى الفرنسية:

1- المسرح الديني: وهو مسرح مرتبط بالاحتفالات الدينية من ناحية، وبالمواضيع الدينية من ناحية أخرى، بدأ كطقس شعبي في مواسم الاحتفال ثم قننت الكنيسة الرسمية هذه الممارسات الاحتفالية التي خرجت من سرديتها البدائية – قصص حياة القديس أو فعل مقدس، ولهذا المسرح ثلاثة أنواع:

أ- **مسرح الثوراة:** الذي يلجأ إلى قصة الإنسان كما جاءت في قصص الثوراة.

ب- مسرح سيرة حياة قديس: ويرتبط بعيد القديس، مصورا حياته. وهناك أنواع مختلفة لهذا، منها المأخوذة من قصص شفهية شعبية وأخرى تأتي من أصول مكتوبة كهنوتية.

ج – مسرح سيرة حياة المسيح: التي تصور فترة من حياة المسيح ورفاقه، وكانت تمثل في ذكرى مولد المسيح ووفاته.

2- المسرح الدنيوي: وجد منذ البداية بجوار المسرح الديني، وهو مسرح مدرسي، دنيوي، كتب في البداية باللاتينية قبل أن ينتشر بالرومانية، وقد ولد بمدارس الأديرة، وكان من تأليف القسس الذين كتبوا "المحاكاة الساخرة".

وكانت تيمات هذه الكوميديا مواضيع المسرح اللاتيني الكلاسيكي ذاته: الخيانة الزوجية، التوسط بين المحبين، سخف الرجل ومكر المرأة...

وقد تطور هذا المسرح في شمال فرنسا، حيث انتشرت الكوميديا بالرومانية أو الفرنسية القديمة في عالم المدنية، حيث ازدهرت السخرية وساد نقد الأوضاع السيئة: ازدواجية رجال الدين، وغياب الصدق، والعدالة في العلاقات الاجتماعية....